هشام أجران

عَنَاقِيدُ الغَضَبِ

قصص عن أرض الإباء

قصص

دار البشيرة

عناقيد الغضب

قصص عن أرض الإباء فلسطين

هشام أجران

اسم الكتاب: عناقيد الغضب (قصص عن أرض الإباء فلسطين)

اسم الكاتب: هشام أجران

نـوع العمل: مجموعة قصصية

عدد الصفحات: 38

الرقم الدولي EBIN: 16-176-01-220625

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2022م / 1443هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

دار بسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

basma24design@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من المؤلف. ©

عناقيد الغضب

قصص عن أرض الإباء فلسطين

قصص

هشام أجران

كلمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى أرض تزرع الكرامة وتحصد المجد

إلى شعب، يكتب ملاحم البطولة

إلى طفل يرسم على الجدار

كوفية وبندقية

إلى امرأة، تودع ابنها الشهيد

بزغرودة وتكبيرة

إلى فلسطين...

مترو القدس(1):

(استشراف لفلسطين ما بعد التحرير)

- استقبلتني لافتة أنيقة، كتب على صدرها بخطوط فضية: "محطة جمال الدرة". نزلت الدرجات بخفة على غير عادتي، ربما نسمات هذا الصباح الربيعي، منحتني شحنة زائدة من الطاقة. وجدت نفسي وسط موج بشري متلاطم، وسرعان ما انغمست داخله، لتمنحني الوجوه البشوشة، والنظرات الودودة، وبعض الابتسامات المنفلتة عفويا، شحنة جديدة من الحيوية، وتملأ روحي بالسكينة والصفاء.

ركبت المترو أخيرا، وألقيت بجسدي على مقعد شاغر. جاري رجل متوسط العمر، منحته خصلات الشيب بعضا من الوقار، وزادته أناقته اللافتة، هيبة وتألقا. التقت نظراتنا لوهلة، وتبادلنا ابتسامة ودية، قبل أن يبادرني:

- صباح الخير. مهندس (خالد)، مختص في علوم الحاسوب، وأشتغل بشركة (قدس تيك).

---

[1] **القصة الفائزة بمسابقة المجدل للقصة القصيرة 2021.**

- صباح الخير سيد (خالد). (فواز)، أستاذ بمدرسة التحرير الابتدائية.
- هل أنت مقدسي أستاذ (فواز)؟
- أبا عن جد، ومن سكان الشيخ جراح. ماذا عنك؟
- أمي تنحدر من القدس، بينما تعود أصول أبي إلى الخليل. لكنني أعشق هذه المدينة، فكأن روحي ارتبطت بها، وبكل تفاصيلها.
- هي القدس يا أخي، ولا بد أن تتملك روحك، وعقلك وكيانك. زيادة على أنها عاصمة البلاد، وتعرف جيدا ما يقال عن سكان العواصم. مغرورون...محظوظون...مدللون...
- هههههه...ومشغولون دائما.

استرسلنا في الحديث، وتشعب بنا نحو مواضيع كثيرة، فتحدثنا في السياسة، وعن قرب الانتخابات الرئاسية، وعرجنا على الاقتصاد، فعبرنا عن إعجابنا بالنمو غير المسبوق الذي تحقق في اقتصاد البلد هذا العام. وانتقلنا إلى الحديث عن الرياضة، فاكتشفنا أننا نشجع نفس الفريق، " أهلي القدس"، والذي يسير بخطى تابثة نحو التتويج بدرع الدوري، رغم المنافسة الشديدة ل"اتحاد يافا". وأنهينا الحديث بإفشاء مخططاتنا لقضاء العطلة الصيفية، واتضح أننا متفقين من جديد على نفس الوجهة، وهي شاطئ غزة، ليس لأنه الأفضل. ولكن لأن في غزة ما يتملك الروح أيضا.

وصلت لمحطتي، فودعت الرجل، وشد على يدي بقوة وهو يصافحني، وردد على مسامعي:

- أحترم الأساتذة كثيرا، وأقدر عملهم. فما نعيشه اليوم من ازدهار هو بفضل التعليم.

لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها هذا الكلام، لكنني كلما سمعته إلا وسرت في جسدي قشعريرة، وازداد فخري وافتخاري بمهنتي.

قطعت شارع الأنبياء، وانعطفت يمينا، لأدخل إلى المدرسة. كانت تحية العلم طقسا مقدسا لا نحيد عنه. اعتدلت، وعدلت ربطة عنقي، وأغلقت أزرار بذلتي، وانتبهت إلى أحد التلاميذ وهو يقلد حركاتي. تحولت ساحة المدرسة إلى لوحة متناسقة من النظام والأناقة، وتعلقت العيون الصغيرة والكبيرة، بالألوان البيضاء والحمراء والسوداء والخضراء، وهي ترفرف في شموخ، ورددت الألسن بحماس نشيد الوطن، فعادت القشعريرة لتسري في أوصالي من جديد.

تفرق التلاميذ على فصولهم، وقطعت الرواق متوجها نحو فصلي. فإذا بزميلتي (هدى) تقطع طريقي. ميزت بريق الحماسة في عينيها الصغيرتين، وتفاجأت بنبرتها الجادة أكثر من اللزوم وهي تسألني:

- ماذا أعددت للذكرى؟

بدوتُ خارج التغطية، واكتفيت بالنظر إليها ببلاهة، لأنني لم أفهم قصدها. وكأنها قرأت أفكاري، فقد صرخت بحدة:

- نحن في ال 28 من آذار يا (فواز)؟

كان التاريخ كفيلا بإيقاظي من غفوتي، " ال 28 من آذار" يعني أن يومين فقط تفصلنا عن الاحتفال بعيد التحرير الموافق للـ 30من آذار. رفعت يدي في وجه محدثي مبديا الأسف، وأجبتها برقة:

- اعذريني، فقد نسيت في غمرة انشغالاتي.
- أعلم جيدا أنك منشغل كثيرا بعملك التطوعي في جمعية الأقصى، لكن هذا لا يمنحك الحق في نسيان ذكرى التحرير.
- مازال يفصلنا يومان على الذكرى. رددتُ محاولا تبرير موقفي.
- لكننا اعتدنا على تذكير التلاميذ بها أياما من قبل. نسيتَ من جديد للأسف. صرخت بنبرة عتاب.
- شكرا جزيلا لأنك ذكرتني، وسأكون عند حسن ظنك، ثقي بي.

ابتسمتْ لتريح قلبي، وأبعدت عن عينيها نظرات العتاب، واسترجعت الكثير من لطفها ورقتها وهي تسألني بهدوء:

- ما أخبار الجمعية؟

- الحمد لله، الأمور تسير على ما يرام. لكننا في هذه الشهور الأخيرة نعاني من ضغط هائل، تعرفين حجم الوفود التي تصل لزيارة المسجد الأقصى، وتعلمين مدى التزام الجمعية بتوفير ظروف الراحة لهؤلاء الزوار، وتنظيمهم، وتقديم جميع أنواع المساعدات. نتحدث عن عشرات الآلاف من البشر، والأمر ليس سهلا على الإطلاق.
- أعانكم الله، فالأقصى أمانة في أعناقكم.
- في أعناقنا يا (هدى).

ودعت زميلتي، ووفيت بوعدي لها، حيث خصصت عشرين دقيقة لتعريف تلامذتي بتاريخ بلادهم. حدثهم عن عقود طويلة من المعاناة والتهجير والقتل والأسر، وأخبرتهم بالمقابل عن المقاومة، وعن البطولات، والأمجاد التي سطرها الآباء والأجداد بحروف من ذهب. وقاطعني التلاميذ كثيرا، حدثوني بدورهم عما سمعوه من أجدادهم أو جداتهم، وعن الصور التي تزين بيوتهم، وقد أحيطت بباقات الورد، صور الشهداء الذين حرروا الأرض بدمائهم.

كانت لحظة محملة بالمشاعر الجياشة، ومرفوقة بتلك القشعريرة التي ما فتئت تزورني بين الفينة والأخرى. لعشر سنوات متتالية، كنت أعيش هذه اللحظة بنفس الأحاسيس والمشاعر، وبنفس القشعريرة.

اعتقـدت مـرارا أن تكـراري لـنفس الكلمـات، وتـذكيري بـذات الأحـداث، سـيجعلني أشـيه بآلـة تكـرر نفـس العمليـات بكثـير مـن الرتابـة والـروتين الممـل. لكـن اللحظـة مـا فتئـت تفـاجئني كـل مـرة، وتجعلني أعيشها بروح متجددة، وبمشاعر فياضة.

أنهيت حصص الصباح، فقطعت الشارع من جديد، متوجها نحو محطة " ياسر عرفات". نزلت الدرجات ببطء، لأجد نفسي وسط حشـد هائـل مـن البشـر. كـان وقـت الـذروة، حـين يعـود النـاس مـن أعمـالهم ومعاهـدهم ومؤسسـاتهم. يجتمعـون حـول موائـد الغـذاء، ثم يلتحقـون مـن جديـد بالعمـل أو الدراسـة. فقـد ارتأت الحكومـة منـذ سنوات، أن تعمل بنظام الفترتين في القطاعين العام والخاص، بعدما وجدت في لمة الغذاء ما يوطد العلاقات الأسرية ويقويها. ولأننا بلد يعيش بلحمة شعبه وتعاونه وتضامنه، فلم يكن للمسؤولين بد من جمع الناس على الغذاء، وتسهيل ذلك.

ارتمى على المقعد قربي في عربة المترو رجل، كان يلهث من فرط الإجهاد، وبدت قطرات العرق على وجهه الأسمر، كبلورات تتراقص على حفنة تراب مبتل. تبادلنا ابتسامة، فشجعتني ابتسامته على سؤاله:

- هل أنت بخير يا سيد...؟

- (أحمد)، دكتور بمستشفى القدس التخصصي، اختصاصي في جراحة العظام.
- تشرفت دكتور. (فواز)، أستاذ بمدرسة التحرير الابتدائية.
- أنا بخير أستاذ (فواز). لكنني مجهد، تعرف ضغوط العمل.
- كان الله في عونك دكتور. مهنتك صعبة، ومرهقة. لكنها تحمل الكثير من النبل والرقي.
- أنا أنا لا أتأفف من مهنتي، بل أفتخر بكوني أساعد الناس، وأعالجهم. لكن الوضع أصبح مأساويا فعلا. عشرات الإصابات تفد علينا يوميا بفعل حوادث السير. شباب في عمر الزهور، تبتر أطرافهم، أو يصابون بكسور شديدة الخطورة، بسبب الدراجات النارية السريعة التي انتشرت في شوارعنا.
- أنت محق دكتور. أصبحنا نعيش في ظل حرب طرق لا تنتهي، وغالبا ما يكون الضحايا من الشباب. ليس منطقيا أن نربح حرب التحرير في مواجهة عدو كان يتشدق بقوته وعتاده وعدته، ونخسر حربا نحن من يساهم فيها، بتهورنا، وقلة وعينا، وكثرة دلالنا لأبنائنا.

صمتنا فجأة، وتبادلنا نظرات ذات معنى، فقد كانت العبارة الأخيرة قاسية فعلا، ومعبرة بوضوح عن واقعنا. وسرحنا في أفكارنا، فتجلت أمام عيوني صورة شاب في مقتبل العمر، بهي الطلعة، وسيم الملامح،

يتقد بالحماس والحيوية والشباب، ووجدتني أردد في نفسي: " سعد...سعد." غريب هو الشعور الذي يسكننا عندما نتذكر أبناءنا، لكنني وفي نفس الوقت، شعرت بانقباض في صدري مع كلمات الدكتور، وتذكرت أنني ومن أشهر قليلة، قدمت له دراجة من النوع المفضل للشباب، كهدية لتفوقه الدراسي.

- وصلت إلى محطتي، فودعت الدكتور على أمل لقاء آخر توفره لنا صدف الحياة. يفصلني شارع رئيسي عن البيت، قطعته بخطوات واسعة، وانعطفت نحو اليمين، حيث شارع فرعي، هناك أبطأت من حركتي، وتركت عينيَّ تسرحان مع المنظر الساحر للأشجار التي زرعت على طرفي الشارع، والتقت فروعها وأغصانها وأوراقها الكبيرة في المنتصف، لتشكل ما يشبه مظلة طبيعية، تقي المارة من حر الشمس، وتمنح للعيون فرصة للغوص في أعماق الجمال والصفاء والراحة.

انعطفت نحو اليسار هذه المرة، حيث اصطفت بيوت قديمة الطراز، يسكنها الكثير من عبق التاريخ، والقليل من البشر. أولئك الذين أصروا على الوفاء لعهد الآباء والأجداد، فقرروا الاستقرار في هذا المكان رغم قدمه، ورفضوا جميع الإغراءات التي قدمتها لهم المدينة الحديثة. لطالما حدثني زملائي عن المشروع الجديد المخصص

للعاملين في وزارة التعليم، والمنجز وسط المدينة، وأسهبوا في وصف الشقق الفخمة، والفضاءات الخضراء، والأسواق التجارية الكبرى، وفضاءات الأطفال، وغيرها من بنى تحتية توفر الراحة والمتعة. لكنني رفضت الرحيل عن هذا المكان، وفاء لوصية الآباء نعم، وأيضا لقربي من المسجد الأقصى، وتلك نعمة لا يعيشها الكثيرون.

تحلقنا حول مائدة الغذاء، أسرة صغيرة مكونة من زوج وزوجة وشاب في ريعان الشباب، وطفلة جميلة. زوجتي موظفة في وزارة الثقافة، تعرفت عليها بحكم اشتغالي في جمعية الأقصى، حيث أتردد كثيرا على مصالح الوزارة، لعرض مشاريع حماية المآثر التاريخية، وعمليات الترميم، وتدابير مواجهة آثار عمليات التخريب والحفريات التي قام بها المحتل لسنوات. جمعتنا ظروف العمل إذن، قبل أن ترتبط قلوبنا وأرواحنا، ويجمعنا سقف بيت واحد. ومن حسن حظي، أن زوجتي احترمت قراري بالعيش في هذا الحي القديم، لأنها كانت تعي رمزيته، وتعلم جيدا تاريخه وأمجاده. كونا أسرة صغيرة، وتشاركنا في الاهتمام بأمور البيت، ورعاية الأبناء، كما تقاسمنا معا هموم الحياة وأفراحها أيضا.

طرقات قوية على الباب كدرت صفو لقائنا الأسري الجميل. فتحت الباب، وقد ارتسمت على وجهي علامات الانزعاج. حياني رجلان ببذلات أنيقة، وردد أحدهما بلطف:

- مرحبا سيد (فواز)، نعتذر عن الإزعاج.

تكلم الآخر دون أن يترك لي فرصة للرد على رفيقه:

- توصلت قبل شهر من الآن برسالة تتعلق ببيتك، هل اتخذت القرار سيد (فواز)؟
- أية رسالة؟ تساءلت بدهشة واستنكار.

انتقلت علامات الدهشة لتسكن محيا الرجلين، قبل أن يجيب أحدهما بجدية:

- رسالة بتلك الأهمية لا يمكنك نسيانها سيد (فواز). على العموم، هو عرض مغر من الشركة المكلفة بتهيئة المنطقة، و...

قاطعته بإشارة من يدي:

- آه، تذكرت. للأسف، طلبكم مرفوض.

بدا الانزعاج واضحا على وجه الرجلين، وتكلم أحدهما بعصبية:

- لن تجد أفضل من عرضنا سيد (فواز).

تأملت عيون الرجل، وسرحت بأفكاري إلى تلك الرسالة التي توصلت بها قبل مدة، وتتعلق بعرض من شركة كبيرة للعقارات لاقتناء بيتي. وذلك لنيتها إنجاز مشروع سياحي ضخم في المنطقة، فنادق ومطاعم ومرافق ترفيهية، مستغلة قرب المكان من المسجد الأقصى، وتوافد الملايين من البشر كل سنة، لزيارة المكان المقدس....

- أرى في صمتك موافقة يا سيد (فواز).

تكلم الرجل فأيقظني من تأملاتي. ابتسمت في وجهه، ورددتُ بثقة:

- أخبرتك يا سيدي أنني غير موافق. فلا تضيعا وقتي ووقتكما. اعذراني فمائدة الغذاء تنتظرني.
- أنت لا تعرف صاحب الشركة يا سيد (فواز). هو مقرب جدا من الرئيس و...

قاطعته بحدة:

- هل تهددني؟

غمز بعينه في حركة مستفزة وردد:

- لا. لكنني أعلمك فقط، لتأمن سوء العواقب.

اقتربت أكثر من الرجل حتى شعرت بأنفاسه، وركزت نظراتي على عينيه، وبصوت يقطر غيضا وغضبا، صرخت في وجهه:

- قد سالت دماء كثيرة على هذه الأرض من أجل الحرية والكرامة، وتعلمنا منذ زمن أن نسير مرفوعي الرأس، وألا نركع لغير الله عز وجل. لا تحدثني عن النفوذ والسلطة ولا عن الأشخاص مهما بلغت مناصبهم. كلامك يعيدنا إلى زمن غابر، زمن دفن تحت التراب، فنحن اليوم شعب يحيا بكرامته، وباحترامه للقانون الذي يسري على الجميع، ولا أحد فوقه.

أغلقت الباب في وجهيهما بعنف، وشعرت بأنفاسي تتصاعد من فرط الانفعال والتوتر، وانتبهت في لحظة لابني (سعد) وقد صور المشهد بهاتفه، وسرعان ما ارتميت على كرسي محاولا استرجاع أنفاسي، وساعدتني زوجتي وابنتي الصغيرة (ملاك) على استعادة بعض من الهدوء، وتمكنتا من إقناعي بإكمال غذائي.

رافقني التوتر إلى مقر عملي، وانتابتني لحظات متفرقة من القلق والغضب والانفعال وأنا أستحضر كلمات الرجل الأخيرة. لم يخطر ببالي يوما أنني سأعيش موقفا مماثلا في بلد قدَّس حرية شعبه، وآمن بسيادة القانون، وجعل العدل أساس الحكم ومنهاج الحياة. اتصلت زوجتي فجأة، توجست من الأمر، فلم تعتد على الاتصال بي خلال

ساعات العمل. كان صوتها من الجانب الآخر مغلفا بالقلق، ومسكونا بنبرة حيرة وانفعال واضح:

- أخبرني أحد زملائي في المكتب، أن مسؤولي الشركة بصدد إعداد تقرير عن البيوت القديمة في حينا، وكونها تشكل تهديدا للساكنين والمارة، لأنها آيلة للسقوط. وهم يمارسون ضغوطا كبيرة على رئيس البلدية لتوقيع التصريح بالهدم.

ترددت الكلمة الأخيرة بداخلي، وطغت قسوتها على تفكيري، وعلى رباطة جأشي التي افتقدتها، ولم أعد أرى أمامي سوى ركام بيتي وقد تعرض للهدم. كان المشهد قاسيا، ولم يفتأ عقلي يصور لي الأسوأ. قطعت الاتصال مع زوجتي، واتصلت بابني (سعد) ليلتحق فورا بالبيت، لربما وجوده هناك يمنع أولئك الناس من تنفيذ مخططهم. قضيت الساعة المتبقية من الدوام وأنا على أحر من الجمر، تتقاذفني نوازع نفسي التي تصور لي الدمار والخراب والضياع، فلن أتحمل رؤية أنقاض البيت الذي شهد بطولات الآباء والأجداد، ولن يكون بمقدوري أن أمتص صدمة واقع همجي يفرض سطوته بالمال والنفوذ والسلطة، بعدما قضيت أكثر من عشر سنوات وأنا أعلم تلامذتي الفضيلة والعدل والخير والعطاء.

دفعتُ بخطواتي نحو المحطة، وتجاوزت الدرجات بقفزات متهورة، وسرعان ما وجدت نفسي داخل المقصورة. لم تكن لدي قدرة على مشاركة الحديث مع الراكب بجانبي، فاكتفيت بالنظر عبر النافذة، وكان شريط حياتي يعرض أمام عيوني، كسحب تحركها رياح عاصفة. لم أشعر إلا ويد تربت على كتفي، التفت ببطء بعدما كبلت الظنون والهموم روحي وجسدي، ففوجئت برجل قد غزا الشيب ما تبقى من شعره، وغطى لحيته، ورسمت التجاعيد في وجهه لوحة عجيبة من الخطوط والمنحنيات، وبدت عيونه الصغيرة الصافية، كلؤلؤتين تحاولان الانعتاق من جحيم الأَسْر. كان الرجل طاعنا في السن، لكن ابتسامته ونظراته تنبئان على قوة روحه، بعكسي تماما. وتحدث بصوت عميق:

- اطمئن يا سيد (فواز)، فكلنا سنقف بجانبك.

عقدت حاجبي من الدهشة والاستغراب، وسألته باستنكار يفتقد للباقة:

- وهل تعرفني؟

- (أبو علي)، سبق وتعارفنا في هذا المكان، كان ذلك منذ زمن بعيد نوعا ما. لكنني لم أنس الأستاذ الفاضل، والمقدسي الأصيل (فواز).

لعشر سنوات كنت زبونا وفيا لهذا المترو، وطيلة هذه المدة كنت أربط علاقات مع كثير من الناس، أشاركهم أحاديث تعارف، ونتناقش في أمور البلد وأحوال الناس، كيف لي أن أتذكر الجميع. طال صمتي، فظن الرجل أنني أحاول تذكره، فقرر أن يخلصني من الإحراج، وقال بذات الصوت العميق:

- هل نسيت المناضل السابق، والأسير في سجون الاحتلال. ألم أحدثك يوما عن بطولاتي وعن تضحيات الرفاق.
- آه. تذكرتك. أعتذر فهناك أمور تشغل بالي.
- أعلم ذلك، لذا قلت لك أن الجميع سيقف معك.
- وكيف علمت بالأمر؟

أخرج هاتفه، وعلى الشاشة كان فيديو حديثي السابق مع الرجلين يعرض على صفحة "الفيسبوك"، لم يتّأخر (سعد) إذن في القيام بالعمل الذي يجيده، ونشر الفيديو على الكثير من المواقع والصفحات. وللحظة، التف حولي بعض الراكبين يبدون تعاطفهم، واستعدادهم للوقوف معي.

وصلتُ إلى محطتي، وقطعت طريقي المعتاد، لم أكن وحدي هذه المرة، بل معي العشرات، رجال ونساء وشباب وشيوخ، الكل منخرط في مسيرة سلمية، دفاعا عن رمز من رموز المدينة، ونصرة

لقضية الكرامة والحرية. منحتني الأشجار الباسقة في الشارع الفرعي شحنة من الراحة والانتعاش، وتغلبت عليَّ مشاعر الدهشة والاستغراب وأنا أنعطف جهة الحي، لأتفاجأ بالمئات من البشر، وشعاراتهم تصم الآذان.

تلك القشعريرة التي تسري في جسدي وأنا أردد نشيد الوطن، تلك المشاعر الجياشة التي تنتابني وأنا أحدث تلامذتي عن عيد التحرير، لا تقارن بما أشعر به الآن. تلقفتني الأيادي والأحضان، وتناهت إلى سمعي عبارات المساندة والتشجيع، وأمكنني أن أميز بين الحاضرين، المهندس (خالد)، والدكتور (أحمد)، وبعضا من أصدقاء ابني (سعد)، ولم تكن زوجتي لتغيب عن المشهد، ولا ابنتي التي رفعت العلم بيديها الصغيرتين عاليا. وانشغلتُ برؤية الألوان البيضاء والخضراء والحمراء والسوداء وهي تتراقص أمام عيوني، قبل أن يقترب مني (سعد) ويعانقني بحرارة، ويهمس في أذني:

- الجميع يعرفونك يا أبي، كيف أمكنك أن تكون مشهورا لهذا الحد؟

- ضممته بقوة إلى صدري، وبصوت واضح النبرات خاطبته:

- الفضل لمترو القدس يا بني.

حنظلة يعود...!

مكتب فخم جلس وراءه رجل أنيق بملامح صارمة وأمامه شاب:

- ما اسمك؟

- في شهادة الميلاد كتبوا (خالد)، لم أرتح لاسمي يوما وحين تفتح وعيي على الحياة عرفت أنه من السخافة أن أسمى (خالد) والموت يتهددني في كل لحظة، فدعوت الجميع أن ينادوني (قيس)...أحببت كثيرا هذا الاسم، أعرف أنك ستسألني عن (ليلى)، لا توجد أية (ليلى) جنون الشاعر هو ما جعلني أحب الاسم، فأنا مجنون أيضا.

- كم عمرك؟

- الآن عمري 28 سنة، وبعد لحظة سأغدو في الأربعين، وهذا الصباح كنت في السادسة؛ لعبت وتمرغت في التراب، وبكيت لأني لم أستطع شراء مثلجات... عمري يتغير كل يوم عشرات المرات، أترك لك الاختيار، اجعلني شابا أو شيخا أو طفلا فأنا كل هؤلاء.

- مهنتك؟

- أنا تاجر؛ أبيع الكلام والنكات والألغاز والجنون...وأربح كثيرا؛ ضحكات الناس، بعض اللكمات، وقليلا من المال...هذه هي

التجارة؛ قضية ربح وخسارة. أملك بطاقة تعريف، أحيانا أدقق النظر في صورتي فيها فأضحك على شكلي؛ عيناي جاحظتان ورأسي مائل لليمين كأني معاق...في يوم أوقفني شرطيان وطلبا مني البطاقة، ضحكا كثيرا وهما ينظران في الصورة...سألاني عن مهنتي فضحكت في وجههما ببلاهة، شدني أحدهما من قميصي وقال:" اسمع أيها القذر! أمثالك يجب عليهم أن يموتوا أفهمت؟" فأصبحت أجيب كل من يسألني عن مهنتي أني قذر ينتظر الموت. ولكنني أعرف أنني تاجر؛ أبيع الكلام والنكات والجنون. هل تفهمني؟

- هل أحببت يوما؟

- الحاج رجل طيب، كل مرة يمنحني بعض المال وملابس أيضا، أحببته وكلما نمت إلا وحلمت أني أقبل يده فيمسح على رأسي ويضحك. لقد أخبره بعضهم أني لا أستحق عطفه فغير تعامله معي، لقد أصبح كريما مع النساء، يسافر لبلاد بعيدة ليغدق عليهن من خيراته، أما أنا فقد تركني.

- إني أسألك عن النساء في حياتك؟

- آه. النساء! سأفضي لك بسر وليكن بيني وبينك؛ في أحد الأيام كنت تائها في الشوارع، لحظتها كنت أبيع الجنون، أضحك حتى تتقطع أنفاسي، وأبكي حتى تحمر عيناي، وأصرخ...وأرقص أيضا.

ولمحتها...كانت تركب سيارة، شابة وجميلة. نظرت إلي فأحسست بنظرتها تنفذ إلى أعماقي فخفت، أشارت إليَّ فزاد خوفي، أشارت من جديد فتقدمت نحوها، دعتني للجلوس بقربها وانطلقنا...أصبحت مرعوبا، امرأة وسيارة؟ لم أكن أحلم يوما بهذه النعم. وصلنا لمكان بعيد و ...

- أكمل، ماذا حصل بعد ذلك؟

- أنا مجنون نعم، لكني لست قليل الحياء ولا فاقدا للأدب. لن أحكي لك ما حدث، لكنني هربت. لم أهتم لصراخها وتوسلاتها. عدت إلى بيتي ونمت مع القذارة والعفن وحلمت، رأيت الحاج يمسح على رأسي ويضحك. لكنني لم أعد أحبه.

- ماهي أحلامك؟

- قليلا ما أنام، وحين أنام لا أستيقظ بسرعة، أعيش حياة أخرى في منامي؛ أحلم بأني أتقدم جمهورا عريضا. أنا أضحك وهم يبكون...! أحيانا أحلم بطائر يحملني بين جناحيه، يغمرني الدفء فأتقلب لأجد نفسي على الأرض الصلبة وحولي القذارة. قد تسألني عن هذه القذارة التي أكثرت الحديث عنها؟ تصور أنني أشارك السكن عائلة فئران، وكلبا أجرب، وقططا سوداء. وفوق هذا كله هناك سلل القمامة. كل جيراني يكرمونني، فبعد أن ضاقت عليهم المزبلة الكبيرة وجدوا في بيتي مرتعا لأزبالهم. آه...!

الآن فهمت لماذا وضعوا لي بابا...إنهم أغبياء، يظنون أنني أتعذب...إني أرثي لحالهم فقد فقدت حاسة الشم منذ زمن بعيد، فليذوقوا قساوة البرد، أما أنا فلي باب يحميني.

- هل تحب وطنك؟

- إني أجمع قاذورات وطني في بيتي لأستره وأحافظ على جماله، وتسألني إن كنت أحبه...نعم، أحبه وأثور في وجه كل من يسيء إليه.

إني أغتسل كل يوم بترابه، آكل من خيراته؛ كسرات الخبز وكؤوس الشاي؛ وأحترم من يحمونه، يروقني أن أمد خدي لأتلقى الصفعات واللكمات، وأسمع الشتائم منهم...أحس لحظتها أني قدمت لهم خدمة هم المشتاقون لذلك، وأكون قد خدمت وطني. أليس كذلك؟

- هل تصلي؟

- بالطبع أصلي فأنا مسلم، لكنني أحيانا أخجل وأنا أدخل المسجد بملابسي الرثة ورائحة العفن تنبعث من جسدي...أحفظ آيات كثيرة من القرآن، وأومن بالملائكة والرسل، وأعرف أننا سنبعث لنحاسب على أعمالنا...أتعرف؟ أحيانا أجلس لأتأمل الشمس أو القمر...ويوما افترشت الأرض فلمحت نملة تحمل على ظهرها

حبة شعير...تصور نملة تحمل ما هو أكبر منها؟ سبحان الله...ألا تؤمن أنت بالله؟

- أنا...؟ نعم...بلى...أنا الذي أسأ ل لا أنت!

- آه...عفوا...لقد نسيت، ليس من حقي السؤال، لكن لماذا أسكن في كوخ قذر وأنتم تسكنون في فيلات فاخرة؟

- ماذا تقول؟

- لماذا ألبس رث الثياب وآكل أسوأ الطعام وأنتم تأكلون في المطاعم وتلبسون ربطات العنق والسترات الأنيقة؟

- هل جننت...ماذا تقول؟

- قد مللت أسراب الذباب، وكرهت رائحة جسدي...قد تعبت من جنون أوهمت نفسي به لأنسى ظلمكم وجبروتكم...واليوم أقول كفى...كفى!

- إنك حقا مجنون، الآن تأكدت من ذلك.

- لا، أنا فقير وأنتم من جعلتم الفقر يسكن ذاتي وروحي. كلانا يملك بطاقة تعريف، لكنك آدمي في نظرهم وأنا؟ لست في نظركم سوى مجرم...أحمق...مدمن...وحقير...لكني لست سوى مواطن بسيط يريد أن يحيا فلم تتركوه. أعرف تهمتي جيدا؛ لقد حطمت الباب الخشبي، فاحت الروائح الكريهة وخرجت الفئران والقطط

والكلب الأجرب لينشروا القذارة في كل مكان. لم تظنوا يوما أني سأحطمه...تركتكم تعيشون وهم جنوني وأنا أعقلكم.

- ما كان عليك أن تحطم الباب لقد أسأت لبلدك؟

- ومن صنع القذارة سواكم؟ لو كنتم نظيفين لما احتجتم لباب يستر عيوبكم، أنتم سبب محنتكم وما أنا سوى ضحية لفسادكم.

- لقد أصبحت كلماتك جريئة، أنسيت أنك مجرد...

- قذر موته أحسن من حياته...! متى ستفهمون؟ متى ستفهمون؟ متى...؟

عناقيد الغضب

- حل أيلول، ليس أيلول الأسود الذي ارتبط بمأساة من مآسينا الكثيرة، بل هو أيلول عادي، مجرد شهر حل أوانه، ويوم آخر نعيشه.

ما زالت الشمس متربعة في كبد السماء، تلفح بلهيبها وجوه البشر، وتبعث بعضا من الضيق في أرواحهم. بالأمس، ودعنا آب، كانت أيامه حارقة أكثر من المعتاد، وزادت من قسوتها، اعتداءات المستوطنين المتكررة على قريتنا الهادئة، واستهدافهم بالخصوص لحقول العنب. لكننا دافعنا عن أرضنا بقوة، كما تعلمنا أن نفعل، منذ أن وعينا على الدنيا. وها نحن مجتمعين الأن في حقل الشيخ (مسعود)، أحد أبناء القرية الأوفياء، وواحد من أهم رموزها وحكمائها.

- شد الحيل يا عم...
- الله يحفظكم شباب.

- اشحذوا الهمم.
- رفقاً بأشجار العنب يا رجال.

زغرودة هنا، صيحة هناك، وصوت يصدح بأغنية جبلية هنالك. فرح، آمال، نشوة، وابتسامة تعلو الوجوه السمراء. اقترب رجل من (الشيخ مسعود)، الذي لم يسعفه سنه المتقدم في مد يد المساعدة، وبادره بحماس:

- ما شاء الله. المحصول جيد هذه السنة يا حاج.

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتي الشيخ، لتزيد وجهه الأبيض صفاء وبهاء. وردد بخشوع:

- الحمد لله دائما وأبدا.
- أخبرني أحد التجار أن السوق ينتظر محصول(الدابوقي) لهذا العام، بفارغ الصبر.
- ونحن سنكون في الموعد كما تعودنا دائما بإذن الله تعالى.

صمت الرجلان، وانشغلا بالمشهد أمامها. انفرجت أسارير الشيخ (مسعود) أكثر وهو يتابع حفيده(خالد) ذو التسع سنوات، كان يشارك في جني المحصول بحماسة وعنفوان يفوق سنه. وخفق قلب الشيخ بعنف، عندما اقترب منه حفيده بخطوات رشيقة، فقد ملك

الفتى نواصي قلبه، ليس لأنه ابن ابنه فحسب، بل لأنه يتيم الأب أيضا. مزيج من الحب والشقة والحنين والأمل، مشاعر متباينة تملكت روح الشيخ، وجعلت حبه لحفيده يفوق الوصف.

عانق الفتى جده بود كبير، ونظر في وجهه مباشرة وهو يقول:

- لقد وعدتني بزيارة المدينة بعد الانتهاء من العمل.

تأمل الجد طويلا في عيون حفيده، تُذكره كثيرا بعيني ابنه القتيل، والذي سقط غدرا قبل سبع سنوات، برصاصة حاقدة من مستوطن متطرف. لم تمضغ السنوات التي مضت ذلك الجرح الغائر في قلب الأب الذي فقد ابنه، لكنه حاول، وبكل ما يملك من إرادة وقوة، أن يعوض فقدانه لابنه، برعايته واحتضانه لحفيده. أجاب أخيرا:

- بالطبع، ولن أخلف وعدي أبدا.
- سنشتري الكثير من المثلجات، وسنمر على كنيسة المهد، فقد أخبرنا الأستاذ مؤخرا عن مولد النبي عيسى. وقد شعرت بالفخر حقا، فلربما الأرض التي نعيش فوقها الآن، قد مر منها المسيح منذ زمن بعيد، أو استراح فيها، ولربما زرع فيها شجرة.
- يفترض بك أن تفتخر بهذه الأرض يا(خالد). فبيت لحم، والخليل، والقدس، كلها مناطق قد شهدت مرور أنبياء كرام. ولهذا ندافع عنها بدمائنا وأرواحنا.

فجأة سمعت جلبة في المكان، هدير محركات سيارات، شوه سيمفونية الحياة والفرح التي كان يعزفها العاملون في الحقل. والتفت الجميع نحو مصدر الصوت. سيارتا جيب عسكريتان، تتقدمان بسرعة، وتثيران الغبار وراءها.

ترجل جنود بقسمات متجهمة، وقدموا باتجاه المزارعين المسالمين، وتشبث (خالد) بجده أكثر. اقترب ضابط من الشيخ، وخاطبه بعجرفة:

- أنت الشيخ (مسعود)؟

عقد الشيخ حاجبيه، ورد بغضب:

- نعم. ماذا تريد؟
- عليكم الانصراف من المكان فورا، وبالنسبة للمحصول فسيصادر كله.

احمر وجه الشيخ بفعل الانفعال، وانتفض في قوة وهو يصرخ في وجه الضابط:

- بأي حق تصادرون محصولي، وتخرجونني من أرضي؟

فرد الضابط ورقة أمام الشيخ، وردد بلكنة مستفزة:

- لقد صدر القرار منذ يومين بضم هذه الأرض إلى مستوطنة "غوش عتصيون". ولم يعد لكم الحق في استغلالها. هيا، تحركوا بعيدا... هيا

وقف الشيخ في مواجهة الضابط، ولم يبد عليه أي شعور بالخوف، بقدر ما سيطرت عليه نوبة غضب قوية، جعلته يصرخ في وجه محدثه:

- لن نتحرك من هذا المكان، أسمعت؟

لم يكن الآخر مستعدا للتفاوض، فأصدر أوامره للجنود وراءه، فأطلقوا قنابل دخان، وقنابل صوتية، في وجه المزارعين العزل، والنساء المسالمات، والأطفال الأبرياء. فتراجعوا جميعا، هربا من الجحيم المسلط عليهم. ولم يتوان الضابط في دفع الشيخ بقوة، ليسقط على الأرض، قبل أن يتدخل رجلان لحمله، ولسحب حفيده بعيدا.

مالت الشمس للمغيب، وهبت بعض السمات لتزيح وقع الحر الخانق الذي استمر طيلة النهار، ولتنعش الأرواح التي أنهكها الضيق والقيض. لكن نفوس أولئك المضطهدين، لم تنل حظها من الراحة

والانتعاش، بقدر ما زادها الغيض والغضب، ألما ومرارة. وارتفع صوت الشيخ (مسعود)، رغم الجرح البليغ في رأسه، ليشحذ الهمم:

- لن نسمح لهم باحتلالنا من جديد، لن نفرط في أرضنا، ولن نستسلم.

كبر الجميع كعادتهم، كلما اشتدت المصائب والنكبات إلا ولجؤوا إلى ذكر الله تعالى، واثقين من قدرته وعظمته.

وشخصت أبصارهم نحو الأرض المسلوبة، حيث رفع علم الاحتلال، ونصبت أسلاك شائكة، وتمركز جنود مسلحون. وفي لحظة، اتسعت عيون الجميع في دهشة واستغراب، بعدما لمحوا شيئا يتسلل من بين السياج الشائك، وبدا لهم أنه يزحف في إصرار عجيب، ويبذل مجهودا مضنيا بحق.

اتضحت الرؤية أخيرا، وكانت المفاجأة أكبر من المتوقع، فلم يكن ذلك الشبح المتسلل في جنح الظلام، والذي تحدى كل الصعاب والأخطار، سوى(خالد)!

كان الفتى في حالة مزرية، بعدما غطت الأتربة ملامحه وجسده، وتعالت أنفاسه بفعل المجهود الذي بذله. كان يطبق بيديه الصغيرين

على كيس متوسط، سرعان ما أخرج منه عناقيد عنب، وقبل أن يفيق الحاضرين من دهشتهم، تكلم الفتى بحزم:

- لن أسمح لهم بأن يأخذوا العناقيد التي جنيتها.

تلقى الفتى الكثير من القبلات والأحضان، وعادت الزغاريد والتكبيرات لتعزف سيمفونية الإباء والنصر. وارتمى (خالد) في حضن جده المصاب، فانهمرت دموع الشيخ فرحا بميلاد بطل جديد، في أرض اعتادت أن تنجب الأبطال في كل وقت وحين.

دنا الفتى من جده، وهمس في أذنه:

- غدا، سنذهب إلى المدينة يا جدي، وسنزور كنيسة المهد، ثم نصلي في المسجد، ونبيع عناقيد العنب في السوق، ولن ننسى المثلجات بالطبع.

الفهرس

إهداء 6
مترو القدس 7
حنظلة يعود...! 23
عناقيد الغضب..... 29
الفهرس 37

عناقيد الغضب

قصص عن أرض الإباء

ثلاث قصص، كأنها رحلة عبر الزمن، تأخذنا أحداثها لماضي فلسطين وحاضرها.

ماض كان حنظلة شاهدا عليه، وهو يتفرج على المعاناة والألم والتهجير والخذلان.

وحاضر تتقد فيه جذوة المقاومة، وتجنى فيه عناقيد الغضب

ومستقبل مشرق، تحرر فيه الأرض، وتصبح خلاله الكرامة شعارا لأمة وشعب.

Darbassma
00212771814934
Bassma24design@gmail.com
www.darbassma.com